طلقة (١٤)

(القفز متعة يجيدها بالعقل)

الشك يحيط بالمآذن العالية !

يعرف السادات جيدا كيف يناور كأنه لاعب كرة ماهر يوحي لمنافسه انه سيحضر في الاتجاه إلى اليمين وهو إلى اليسار أسرع بكل ما يملك فقد أعلن في يوليو ١٩٧٢ إجلاء الخبراء السوفيت من مصر وكانت له فلسفته وقناعته أن وجود السوفيت أثناء الحرب سوف ينسب إليهم كل جهد في الانتصار عندما يتحقق كما أنهم تباطؤوا كثيرا وناوروا في إمدادات السلاح وقبل هذا القرار بشهر تقريبا دعا السادات إلى اجتماع في استراحته في القناطر الخيرية وحضرها عدد محدود من القادة منهم الفريق صادق وزير الحربية والشاذلي والجمسي ومحمود علي فهمي عن الدفاع الجوي واللواء المسيري عن القوات الجوية واللواء جوهر من التنظيم والإدارة وكان الهدف من الاجتماع أن يقرأ علينا تقريرًا كتبه مدير المخابرات العامة أحمد إسماعيل وقد حذر فيه من القيام بعمليات هجومية نظرا لضعف قواتنا الجوية وعدم وجود دفاع جوي متحرك وبالتالي يجب تأجيل أي عمليات حربية حتى تتساوى قواتنا الجوية مع الإسرائيلية في القوة وهنا يؤكد الشاذلي..

هذا الكلام معناه أن خطة المآذن العالية التي وضعتها هي خطة محددة وتهدف إلى عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف والتمركز شرق القناة وكانت الخطة سرية ولا يعلمها إلا عدد محدود جدا لا يتجاوز عددهم سبعة إلى ثمانية.. وهذا معناه أن السادات لم يكن ينوي فعلا أن يدخل الحرب عام ٧٢ وقبلها أطلق على عام ١٩٧١ سنة الحسم ولم يحسم.

والسادات بدوره ألقى باللوم على السوفيت لأنهم لم يلتزموا بما تعهدوا به في عام الحسم هذا بما أحرجه مع شعبه.ويذكر السادات انه اتصل بالهند لكي يحصل منها على السلاح الروسي بطريقة غير مباشرة لكن الهنود عادوا إلى السوفيت لاستئذانهم ولكنهم رفضوا..

وحقيقة الأمر أن السادات كان يكره الروس من الميراث السوفيتي الذي سارت عليه مصر في أمور كثيرة وكان يميل أكثر إلى كل ما هو أميركي وهو أيضا ما ورثه

حسني مبارك من بعده وقد أعرب عن سعادته بطرد السوفيت لأنهم يتسمون بالخشونة والفقر على حد تعبيره لمحمد حسنين هيكل وقد طلب السادات لقاء السفير السوفيتي في مصر وطلب منه إبلاغ الكرملين بما سيقوله كرسالة رسمية.. وهنا لعبها ببراعة حيث لا شيء مكتوب وفي ذلك قوة من الراسل واستخفاف بالمرسل إليه.. وقال:

ارفض أسلوب تعاملهم معي وقد قررت الاستغناء عن الخبراء الروس وعددهم ١٥ ألفا وأن يعودوا إلى بلادهم في ظرف أسبوع من اليوم وسأبلغ وزير الحربية بذلك وهناك معدات سوفيتية وهي أربع طائرات ميغ٢٥ وهناك محطة للحرب الالكترونية ويعمل عليها طاقم سوفيتي وأما أن تبيعوها لنا او تسحبوها معكم.. ولم يصدق السفير ما سمع، وحلل السوفيت والغرب وإسرائيل هذا القرار بأنني لن ادخل المعركة وهو ما أفادني استراتيجيا وقد أدركنا أن السوفيت بدأوا يشعرون أن لهم وضعا ممتازا في مصر وسفيرهم تحول إلى مندوب هؤلاء الخبراء في المحطة الالكترونية لا يعملون إلا بعد تلقي الأوامر من موسكو والأخطر أنهم تصوروا أنهم وضعوا مصر في جيبهم وان الاتحاد السوفيتي هو ولي أمرنا وقد اصطدم الشاذلي مع صادق.. الأول يرى أن تكون خطتنا حسب ما نمتلك من إمكانيات خاصة بعد طرد السوفيت والثاني يرى أن ننتظر حتى تكتمل الإمكانيات ومعنى ذلك إطالة أمد الانتظار.. والناس قد فاض بها.. ولذلك أسرع السادات بإبعاد صادق كما انه استشعر انه ينوي الانقلاب عليه مع مراكز القوى.

والشاذلي من المدرسة التي تضع خطتها وفق ما تملك وما يملك العدو وبهذه الفلسفة انتصرنا في أكتوبر ومع ذلك إلى جانب خطة المآذن العالية السرية جدا وضع خطة أخرى بعنوان ٤١ أو التوجيه ٤١ وتعمد أن ينشرها وان تصل إلى الروس.. وتعتمد على أن الوصول إلى المضايق يلزمه كذا من السلاح وبذلك هي مذكرة مطالب أكثرها منها خطة حتى انه ذهب بها إلى كلية أركان الحرب وناقشها

مع الدارسين وكان منهم سمير فرج الذي كان رئيسا للشؤون المعنوية ثم رئيسا للأوبرا ومحافظا للأقصر وعن ذلك يقول في مقال نشرته جريدة الفجر.

للحق والتاريخ.. فإننا يجب أن نتذكر أن الفريق سعد الشاذلي كان صاحب فكرة هذا التوجيه.. وأنه خلال فترة حرب الاستنزاف أصدر سلسلة من التوجيهات.. وهي ما يطلق عليها توجيهات رئيس أركان حرب القوات المسلحة.. وكانت عادة تصدر بعد حدوث أعمال قتالية خاصة.. كان على الفريق سعد الشاذلي أن يقوم بتجميع خبرة القتال من أعمال القوات المصرية.. والدروس المستفادة.. بعد الحدث مباشرة.. ويتم توزيعها على عناصر القوات المسلحة للاستفادة منها في أي أعمال قتالية مشابهة مستقبلاً.. وكان منها على سبيل المثال التوجيه الخاص بتأمين الرادارات في المناطق المنعزلة وذلك بعد الغارة الإسرائيلية على أحد الرادارات المصرية المنعزلة.

لكن هذه المرة صدر هذا التوجيه قبل بدء العمليات، وبدأ التفكير في إصدار ذلك التوجيه عندما كان الفريق سعد الشاذلي يراجع خطة العملية الهجومية.. لاقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف.. ووجد أن هناك العديد من المشاكل التي تعوق وتؤثر في التخطيط للعملية الهجومية.. فأصدر أوامره بتشكيل لجنة خاصة لإعداد هذا التوجيه ليكون منهاجاً لخطة الحرب.. ولكن بعد أن انتهى العمل من هذا التوجيه، أصبح هو الخطة التفصيلية لعبور قناة السويس واقتحام خط بارليف للقوات المسلحة بالكامل.

وأتذكر وأنا طالب في كلية أركان حرب.. في منتصف عام ١٩٧٣ وقبل الحرب بأشهر قليلة.. أن أبلغنا مدير الكلية.. أن الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة سيزور الكلية وسيقضي يوماً كاملاً مع الطلبة الدارسين لكي نناقش معه التوجيه ٤١ وهي الخطة التفصيلية لعبور واقتحام قناة السويس.. واعتقد أن الفريق سعد الشاذلي كان بذلك القرار شديد الذكاء.. فبعد دراسات استمرت عدة

شهور من لجنة الإعداد التي ضمت عناصر من جميع أفرع وقوات وإدارات القوات المسلحة.. لوضع خطة تفصيلية دقيقة لاقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف وإنشاء خمسة رؤوس كباري شرق القناة تحدد فيها دور كل جندي.. وضابط.. وقائد.. كان اختيار الفريق سعد الشاذلي لإشراك طلبة كلية أركان حرب قراراً سليماً.. لمناقشة تفاصيل هذه الخطة بصورة نهائية.. أولاً لأن الدارسين في كلية أركان الحرب في هذا التوقيت كانوا نخبة متميزة من ضباط القوات المسلحة والتحقوا بالدورة بعد امتحان مسابقة من بين ١٥٠٠ ضابط.. وثانياً أن هؤلاء الدارسين هم من جميع الأفرع والقيادات والأسلحة الرئيسة والمعاونة والإدارية في القوات المسلحة، ثالثاً أن الدارسين كانوا منهمكين في الدراسات النظرية لمدة عام.. التي اعتمدت على الأرقام والحسابات.. علاوة على ما لديهم من الخبرات الشخصية والميدانية والتي على أساسها تم قبولهم في هذه الكلية، وأخيراً أن كلية أركان حرب في هذا التوقيت بالذات كانت قد تم طرد الخبراء الروس منها.. وأصبح أعضاء هيئة التدريس جميعهم من الضباط المصريين.

وتم توزيع مسودة التوجيه ٤١ على جميع الدارسين قبل اللقاء بعدة أيام.. قمنا بدراسته.. بالتفصيل.. والواقع أننا فوجئنا بحجم هذا العمل الرهيب.. الدقيق.. ولم يسمح لنا خلال فترة دراسته أن نأخذ معنا أي أوراق إلى منازلنا للحفاظ على السرية.. ولذلك كنا نظل ندرس ونتناقش في الكلية يومياً.. حتى وقت متأخر ونترك أوراقنا في خزائن الدراسة.. حتى صباح اليوم التالي.

ولقد حققت هذه المناقشات داخل الكلية لنا كطلبة دارسين من مختلف الأسلحة والتخصصات التنسيق المتكامل.. المبني على الفهم العلمي.. الأكاديمي.. لكل مراحل العبور.. واقتحام النقاط القوية.. وصد الاحتياطيات المدرعة الإسرائيلية.. ومطالب كل مرحلة من مراحل العبور.. وهكذا عمل ١٥٠ طالباً من الكلية كمجموعة متجانسة.. متعاونة.. تنسق مع بعضها.. هذه الخطة..

وتحقق مطالب كل فرع من الأفرع.. وأعتقد مثلاً أن ضباط سلاح المهندسين هم أكثر من كنا نتعاون معهم.. ويتم التنسيق معهم.. نظرا لأن الخطة أساساً كان محورها العبور بوسائل ومعدات سلاح المهندسين.

ولقد بدأ الفريق سعد الشاذلي هذا التوجيه بوضع جميع المشاكل.. والمصاعب أمام المخطط المصري لعبور القناة وتدمير خط بارليف.. وكان أمام مجموعة العمل أن تضع الحلول أمام كل مشكلة.. فلقد كانت أعقد المشاكل التي قابلت المجموعة الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة... هو الذي أعطى للجانب الإسرائيلي ميزة السيطرة بالنيران.. والملاحظة ضد القوات القائمة بالعبور.. وأدى ذلك إلى اقتراح ضرورة بناء نقاط قوية مرتفعة مزودة بمصاطب دبابات على الضفة الغربية للقناة.. تسمح للجانب المصري أن يؤمن قواته التي تعبر القناة بالنيران والمعلومات. وأتذكر أن موشيه ديان عندما شاهد الجنود المصريين يقومون ببناء هذه النقاط سخر منهم، وقال أمام وكالات الأنباء.. أن المصريين دائماً مغرمين ببناء الأهرام.

وأمام مشكلة عمل فتحات في الساتر الترابي أمام الكباري.. فكان أحد أعظم الحلول التي وضعها المفكر المصري.. وهو استخدام خراطيم المياه.. والتي تم نقل فكرتها أثناء بناء السد العالي في أسوان.. كما تم إعداد سلالم من الحبال لصعود جنود المشاة للساتر الترابي.. ومعهم معداتهم.. وأسلحتهم.. وذخائرهم.. وكان الفريق سعد الشاذلي.. خلال محاوراته معنا.. يركز على أنه يجب أن نعتمد على الأفكار والحلول المصرية.. وأن نعتمد على المواد المصرية.. وأذكر أن الشيء الوحيد ربما.. تم استيراده من الخارج.. كان مضخات الدفع المائية.. لعمل الفتحات الشاطئية.

وعند بحث مشكلة مواسير النابالم.. التي وضعها الجانب الإسرائيلي.. مع نقاط خط بارليف لكي تحول سطح القناة إلى كتلة لهب مشتعلة يستحيل على قوارب المطاط أن تعبر منها.. فقد تم التغلب عليها بتشكيل مجموعات تقوم بالعبور تحت ستار نيران المدفعية لسد فوهات وفتحات أنابيب النابالم.. وللتغلب على

مشكلة مصاطب الدبابات الإسرائيلية على الجانب الشرقي من القناة.. فلقد ركز التوجيه ٤١.. على دفع مجموعات اقتناص دبابات لتحتل هذه المصاطب قبل عبور القوات.. لمنع الدبابات الإسرائيلية.. من احتلالها وتدخلها ضد القوات المصرية المهاجمة.. ثم جاءت مشكلة اقتحام النقاط القوية الإسرائيلية في خط بارليف.. حيث تم تكوين قوات خاصة لمهاجمة هذه النقاط اعتمد تكوينها.. على حجم النقطة وتسليحها.. وعدد الدبابات الموجودة بها.. وشكل وحجم المواقع الدفاعية التي تحوط بهذه المنطقة.. وبالتالي.. خرجت الخطة بشكل وأسلوب الهجوم.. سواء بالمواجهة.. أو على الأجناب.. أو من الخلف.. طبقاً لطبيعة دفاعاتها.. وهكذا يمكن القول أن هذا التخطيط الدقيق.. المبني على معلومات دقيقة.. تفصيلية.. كان من أهم عوامل نجاح عملية التنفيذ. كما تمت دراسة بعض العوامل الأخرى.. مثل تغير سرعة التيار في قناة السويس وعمليات المد والجزر.. ومدى تأثيرها على عمليات العبور بالقوارب.. أو المركبات البرمائية.. وعمليات فتح الكباري.. كل ذلك تم وضعه في الاعتبار في أعمال التخطيط للعبور.

ولعل أكبر المشكلات التي واجهت مجموعة إعداد التوجيه ٤١ برئاسة الفريق سعد الشاذلي هي التعامل مع الاحتياطيات المدرعة الإسرائيلية التي كان المخطط لها أن تتدخل ضد قوات رأس الكوبري المصرية شرق القناة، حيث كان على قوات المشاة المصرية المترجلة أن تتعامل مع هذه الاحتياطيات حتى صباح اليوم التالي بدون أي دعم من المدرعات.. ومن هنا ظهرت براعة مجموعة التخطيط، حيث تم حساب توقيت تحريك كل احتياطي من الاحتياطيات الإسرائيلية.. ثم حساب حجم الأسلحة المضادة للدبابات المطلوب تواجدها في هذا التوقيت في منطقة رأس الكوبري لصد وتدمير هذه الاحتياطيات.. ومن هنا جاء ترتيب عبور القوات بالدعم اللازم.. طبقاً لتوقيت تدخل هذه الاحتياطيات الإسرائيلية شرق القناة.. بل وصل الأمر إلى تحديد تسليح كل جندي.. وحجم الذخيرة التي سيحملها هذا الجندي..

سواء لتسليحه أو لسلاح آخر سيعبر معه في هذا القارب.. وتم التخطيط بحيث يحمل كل جندي لغمين من الألغام المضادة للدبابات.. لإنشاء حقول ألغام متحركة أمام القوات.. للمعاونة في صد الاحتياطيات المدرعة الإسرائيلية.

ويمكن القول أن التوجيه ٤١ قد عالج ١٣٢ مشكلة كانت تقف عائقاً أمام المخطط المصري الذي كان يضع خطة العبور واقتحام قناة السويس.. وتدمير خط بارليف.. وإنشاء رءوس الكباري شرق القناة.. وكانت معالجة هذه المشاكل.. بأفكار مصرية.. بسيطة.. ووضعتها هذه اللجنة بخبرتها ومستفيدة بالخبرات التي ظهرت خلال التدريبات على العبور في دلتا نهر النيل.

وجاء يوم مناقشة الخطة.. حيث وصل الفريق سعد الشاذلي إلى كلية القادة والأركان وأمامه ١٥٠ دارساً من أكفأ ضباط الجيش المصري وأعضاء هيئة التدريس.. وبدأ النقاش من الثامنة صباحاً حتى السابعة مساءً.. واستكملنا النقاش في يومين.. ويمكن القول أن هذا التوجيه في النهاية كان يتضمن.. الخطة التفصيلية لعبور القوات.. بدءاً من عدد الجنود في كل قارب.. وتسليح كل جندي.. وحجم الذخيرة التي يحملها.. سواء لنفسه.. أو للقوات المعاونة.. ووصل الأمر إلى توقيت دخول معدات العبور لمنطقة القناة ابتداء من القوارب المطاطية.. إلى معدات الكباري.. وأسلوب حمايتها.. ومواقع مولدات الدخان.. والدفاع الجوي.. الخ.. المهم أن ذلك التوجيه ركز على كل التفاصيل الدقيقة للغاية.. ولم يترك للقادة.. إلا التنفيذ الدقيق.

كما تناول التوجيه ٤١، علاوة على ما سبق، أساليب مهاجمة نقاط خط بارليف.. ومجموعات فتح الثغرات في الساتر الترابي.. وعمل مجموعات إغلاق أنابيب النابالم.. وتوقيت وأسلوب دفع مجموعات المفارز المصرية المتقدمة التي ستحتل مصاطب الدبابات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة لمنعها من التدخل ضد قوات العبور.. ثم عمل مجموعات الدخان لعمل ستائر تعمية مناطق المعابر.

كما ركز التوجيه ٤١ على توقيتات عبور القادة على جميع المستويات اعتباراً من

قادة فصائل المشاة.. مع الموجات الأولى للعبور.. وقادة السرايا.. وقادة الكتائب. كما شمل التوجيه ٤١ على تصميم سترة خاصة لكل جندي يرتديها لتناسب ما يحمله من الأسلحة والذخائر والألغام.. سواء كانت له.. أو لسلاح معاون آخر سيحمل له ذخيرته، وبالتالي تم حساب الذخائر المطلوبة للمعركة حتى صباح اليوم التالي بعد بناء الكباري ووصول العربات المحملة بالذخائر.. ولم ينس التخطيط في التوجيه ٤١ دور الخدمات الطبية ضمن موجات العبور.. لتقديم المعاونة الطبية خلال مراحل القتال كما ضمت موجات العبور ضباط الملاحظة وإدارة النيران للمدفعية.. التي لم تكن قد بدأ عبورها بعد.. كما تم التخطيط لدفع مجموعات من حاملي الصواريخ سام ٧ المحمولة على الكتف.. للتعامل مع الطيران الإسرائيلي عند مهاجمته لقوات العبور على ارتفاع منخفض متجنباً حائط الصواريخ المصري.. ورغم أنه لم يحدث اقتراب للطائرات الإسرائيلية أو تدخلها ضد قوات العبور.. إلا أن التخطيط كان لمجابهة كل التوقعات.

ويمكن القول أن هذه المناقشات كانت تفصيلية إلى أكبر درجة ممكنة.. وأدارها بالكامل الفريق سعد الشاذلي الذي كان منماً بكل التفاصيل الدقيقة.. وسمح بنقاش ديموقراطي.. علمي.. عسكري.. ميداني.. سمح لكل الأطراف بعرض رأيها.. دون رهبة.. أو خوف.. فالكل كان يعلم أن مصر هي الهدف.. ولذلك كان هذا اللقاء مع طلبة كلية أركان حرب هو بمثابة المراجعة النهائية للخطة التفصيلية للعبور التوجيه ٤١ بعدها تم إصداره في خطط تفصيلية للقوات المشتركة في عبور القناة.

وهكذا جرب الشاذلي خطته العامة وسط ابنائه الضباط لكي يعرف كيف يطور خطته السرية وهكذا هو أحد أسرار نجاح حرب أكتوبر ومهندسه الأول.